نواف ابو الهيجاء

آه .. يا ترنيمة الغربة

« يا ارض وطني ،
ها أنذا اعود من جديد الى مصيري ،
آتي من المدن والغابات ،
آتي من البحر ، ومن كل اللغات ،
كل ما رأيته ، كنزته تحت عيني ،
كل ما لمسته ، خبأته في يدي ،
كل ما سمعته ، احضره معي
مكتوبا في تقاطيب جبيني »

بابلو نيرودا

ـ ١ ـ

من يملك ان يقهر في قلبه قلبا ، يصدر امرا الى نفسه ، يمشي في الليل الطويل ، الممتد وكأنه الازل ، الى اجل يرسمه برأسه‌وزنده؟

من يملك ان يقتحم اسوار العتمة المرصوفة مثل الاجداث ، المتقاربة كشعر العنز الهرم ؟

من يملك ان يحمل سيفا ولا يبصر حده ، بسبب ظلمات الليل المحلولكة ، ويقطع بصليله جذور الستار المتفحمة ؟

من يملك ان يخنق في نفسه ، بنفسه ، نفسا ؟

ـ ٢ ـ

ـ جاء في نبأ من سايجون ان قوات الثوار تتقدم نحو العاصمة ، في حين هجر مئات الالوف من سكان المدن والاقاليم مدنهم وقراهم وتوجهوا في حال من الفوضى الى سايجون .

ـ العب يا عبدالله .
ـ خذ ، جهار ويك .
ـ هات شايا يا سلمان .
ـ وقهوة سكر خفيف .
ـ واحد شاي وواحد سكر خفيف .
ـ طق ـ طاق ـ طيق ـ تاك ـ سكر ـ سايجون .. خفيف ـ ليمون ـ طاق ـ كيسنجر ـ تاك ـ طق ـ موسى ـ سلمان ـ سي ويك ـ الخليج ـ فنومبنه ـ طيق ـ دانانغ ـ شاب الكوبة ـ قهوة ـ مرة ـ سايجون .. طق تاك ـ العب ـ بترول ـ سكر ـ طق طاق طيق ـ ...

وخرج احمد حسن اليافاوي من المقهى .

ـ ٣ ـ

ـ انت غبي يا احمد حسن اليافاوي .
ـ ربما .
ـ وتعترف ؟
ـ ربما .
ـ اسمع يا احمد ، الوظيفة لا تطعم خبزا هذه الايام ...
ـ انت حمار يا احمد حسن اليافاوي .
ـ ربما ، لكن لماذا ؟
ـ لانك لا تعرف الى أين تسير .
ـ انا غريب .
ـ حاول الا تكون غريبا .
ـ يا شيخ . اشعر بالغربة حتى امام نفسي . عندما اقف امام المرآة ، انظر الى وجه مثله مثل بقية الوجوه التي اصدفها في الشوارع والاسواق ، في الدائرة وعلى الجدران ، في الازقة والمقاهي. وجه غريب عني لا اعرفه . اتساءل الف مرة في اليوم الواحد ، ترى هل هذا انت يا أحمد حسن اليافاوي ؟ كم تغيرت خلال خمس‌سنوات؟ يجيب الوجه المزروع في المرآة : لست ادري . يهز كتفيه ، أهز كتفي . اخرج له لساني ، يخرج لي لسانه . اضم له قبضتي والوح مهددا ، يضم لي قبضتيه ويتوعدني . أنا غريب حتى عن نفسي . اتساءل الى متى ، لكني لم اعد اعرف شيئا .
ـ انت مجنون .
ـ ربما .
ـ لماذا غادرت الساحة ؟
ـ لست ادري .
ـ لماذا تركت (الكلاشن) ؟
ـ لست ادري
ـ لماذا أنت هكذا ؟
ـ لست ادري
ـ ظ فيك يا اخي ، لست تدري ، لست تدري.. متى تدري؟
ـ لست ادري

ـ ٤ ـ

ـ اسمعت اخر الاخبار يا ابي ؟
ـ طق طاق ، فنومبنه .
ـ اعني اخبار بلادنا ؟
ـ طاق طق ـ سكر شاي تجارة .
ـ ابي ، لقد فشل كيسنجر .

ـ طق طاق دانانغ .
ـ ابي ، ماذا الم بـك ؟
ـ لست ادري ، لست ادري .

ـ ٥ ـ

ـ أنت أحمق يا يافاوي .
ـ كان عليك يا عزيزي سميح ان تفحص (الراديتر) ـ
ـ لقد فحصته . لم يكن ماؤه ناقصا و ..
ذابت الكلمات . ما عاد لهـا رجع او منفذ للجه . اوصدت امامها الابواب . تأمل اليافاوي الوجوه من حوله كانت الافواه هي اوسع ما في هذا الوجود . افواه مفغورة مثل مغاور ليليلة ، في بطون جبـــال ممسوحة الرؤوس ، صلعاء . كانت الالسن تتحرك بغير مـا ايقـــاع منتظم . مجموعة من الراقصين فقدوا الصلة باللحن . وكانت العيون اضيق ما في الكـون ،والرؤوس اخفتها الافواه . مقلتاه هما المحدقتان الى الوجوه والافواه . التلفاز صور صمـاء متحركة ، بآلية مضحكة مضجرة . عالم من رمل على شاطيء واســـع ، تضيـع الابصار في نهايته . الايادي تتحرك بعصبية ظاهرة . الضياء يخفق في قلب المدينة، والحركة دبيب بطيء معذب . سرعـة العجـلات سيف مسلط على رأس الهدوء في المدينة . كل شيء يفتـــح فاه يتثاءب ، كل شيء مسهـد العيون . احنى رأسه ، اخذت عيناه تتجـولان بين الارجل . غابـة متشابكـة لا طريق بينة فيها ، وقد ترتطم جبهته بأي غصن متدل ،او ... الزحام لغز مضلل .

ـ ٦ ـ

من أحشاء الظلمات نبت ضوء . تميزه ، خاتم . فرك الخـاتـم يزيح عنه الغبار . زمجرت السماء ، اكفهرت الاشجار . عولت ريح شرقية ، وزأرت ريح غربية ، وصفرت عاصفة من اعماق الغابة ، ثم انبثق نور ساطع لـم يحلم بمثله . غشي على بصيرته . لكنه كـــان يعرف مـا وراء ذلك كله .

ـ شبيك ، لبيك ، عبدك بين يديك .
ـ هاه . جمد كل جنود العدو المتربصين على الحدود فيوطني. حولهم الى تماثيل من شمـع .
ـ أمرك في الحال مطاع .
عاد بحر الظلام برهة حسبها دهرا . ضحكات ناطحات السحاب غيـر المنظـور :
ـ تم لك ما أمرت يا مولاي .
ـ رائع . الان اعدني الى قريتي .
ـ أمرك مطـاع .

أغمض عينيه . حين فتحهمـا سقطتا على هول . جثث اطفـال تملأ ازقـة القرية . اطفال مذبوحون من الوريد الى الوريد . سقـط الخاتم من يده . ارتعدت فرائصه، وانتصب شعر بدنه ، وسحب يده من جسده وكأنه فارقه الى الابد :

ـ ما هـذا ؟
ـ هذه هي قريتـك .
ـ اعد اليهم الحياة فورا .
ـ لا .
ـ كيف لا ؟
ـ لم أمنح الا القدرة على القتل والاغناء والافقار والبطش والطيران واطعام الجائع وارواء الظامىء . لكـن لا استطيـــح منح الحياة للمذبوحيـن .
ـ انهم ابناء قريتي .
ـ ايها المتكاسل الغبي . انت تستطيع ان تعيد اليهم الحياة .
ـ كيف ؟
ـ لست ادري .
ـ انت الاخر لست تدري .
ـ هاه . هاه ـ هاه .
رمى اليافاوي الخاتم من يده بعد ان التقطه ، واختفى المارد .

ـ ٧ ـ

من الذي يجرؤ ان يتقدم ، عبر طيات ودهاليز الظلمات ، الـى الجنود المتجمدين ، الى التماثيل الشمعية الواقفة ، تحمل السلاح الاخرس ، البارد مثل الافاعي في ليالي الشتاء القطبية ؟
من يجرؤ على التقدم يا يافاوي وهو على غير علم بما آلت اليه الوجوه المفعمة بالدم ، والايادي المخشوشنة العجفاء ، والقلـــوب المتورمة في شهرها الاخير ، والافواه الطافحة بخناجـر حمراء مـن دمـاء الاطفـال ؟

ـ ٨ ـ

حزنك ، يا يافاوي ، ورم" نامٍ ، يكبر يومـا بعد يوم . حزنـك صار اعمق من المحيطات ، واثقل مـن جبال زئبقية . ملأ عليك الكـون حتى انك لم تعد تبصر الا"ه .

سأقتله القذفـاف الى اطراف المدينة . لا يذكـر كم من الوقت مضى عليه وهـو يسير ، لكنه شعـر ، الآن فقط ، بخوف يضربه ، يتمركز بعناد لا يوصف فيركبتيه ، وفي اسفل ظهره . خيـل اليـه ان ألما قد خثر في قدميه . توقف عن السير . امامه تمتد فيافـي لا نهايـة لها . حدودهـا الدائرية تلتقي السماء المنحنية في كـل الجهات . توجس شرا يكمن له خلف المنحنى الدائري الضيق هذا . الجد نفسه يلفه الليل بسواد داكن . كانت الشمس قد غابت وهـو غافل عنها ، لـم تخلف لـه الا الدجى . نجوم مبعثرة تحاول صحب ان تغطيهـا ، تحجب عنه الرؤية . حين تطلع الى الوراء رأى الضياء يخفق في المدينة . لقـد ابتعد عن المدينةحقا . ماذا صدف فـي مسيرته ، ليس يدري . كأنه مـا سار ، قط . منذ متى بدأ المسيرة لا يذكر . ربما منذ الف عـام شعـر انه زحف عارم بـدأ منـذ الف عام .. الى الوراء . كان كل شيء حوله يشير فيه عواصف غم وحزن . هذا الحزن صب في أعماقه اعمدة ظلام ، ثم خزنه فيـه كلحـاء السنديان الهرم . من أيـن يأتي الحزن الانسان ؟ من أيـن يأتـي الانسان الحزن ؟ كيف يطوقه ، ثم يستولي علـى حصونه ؟ وكيف ... ولمـاذا ؟ تمزق الى الف سؤال وشظية استفهام . لكنه تحير ، كيف ينبثق السؤال من اعماق صلدة كالصخر الاصم ؟ كيف ينبت من اعماق لا ماء فيهـا ولا هواء ولا ضوء ؟ كيف يخرج السؤال عملاقـا قبل ان يعرف ابويه ؟ ولماذا تفهقه امامه الاف الافواه ، وهي تصرف علـى اسنانها ، ثم تزعق : انت حمار ، انت غبي ، انت احمق . كـــل النعوت ، الوصمة ، التي يسمعهـا ولا تحرك فيه الا شـــارات الاستفهام ،ثم ترتج عليه الامور ؟

اين انت الآن ، يايافاوي ؟

في البيت وحيد ، في المقهى وحيد ،في السوق وحيد ، فـي الدائرة وحيد . انت وحيد مثل مركز دائرة . بين الملايين وحيد .مع نفسك ، امام نفسك غريب . كيف ؟ تمشي ولا تمشي . مكانك راوح. تصغي ولا تصغي ، افـواه لا تخرج صوتا واحدا . يحدثك ابنك فلا تدري عم يتكلم . يروون لك الاخبار فيضج في اعماقك نداء مبهم ، يتكاثر بالانشطار ، خلال لحظات وجيزة فاذ انت امام طلسم .

شبت حرائق حزن لا يدري من أين ابتدأت ، وكيف ؟ شبت عنيدة ، طاغية ، متطاولة ، ترتفع السنتها المتوهجة في لب العتمة، فينشق السكون عن اصواتها المتداخلة ، ثم ما تلبث الاصوات ان تتوضح :

ـ انا البحر يا يافاوي .

ـ اجل ، اعلم . ما جلست على الشاطىء الا لكي ارقب الموج الابدي ، هذا الموج الذي لا ينتهي مثلما الانسان . كم من الخلائق وقفت امامك خاشعة يا بحر ؟ هل مررت بمدينتي ؟

حبل الموج ، ثم تمخض ، ووضع :
ـ نعم . لقد مررت بها .
ـ حدثني ..

ـ ماذا اقول لك ؟ أأقول ان الرمل الوادع اضحى خناجر مغمسة بالدم ؟ أأقول ان الدهاليز والغياهب التي كنت اسر اليها بما اكتنزته عبر ملايين السنين ، قد اصبحت قفرا ، لا انس فيها ولا جن ؟ أاحكي لك عن المقابر والمدافن وكي ....
ـ كفى .

ساد سكون مرعب . ارتعد الحس في قلب اليافاوي . لكن السنة اللهب عادت تتوهج ، وصخب كل شيء من حوله . طوقه ابهام من كل جوانب نفسه . اتاه صوت كأنه خرج لتوه من اعماق ملايين السنين :

يا فاوي . اسمع .
ـ انا مصغ .
ـ لماذا تركت (الكلاشن)؟
ـ من انت اولا ؟
ـ انا ؟ انا الريح .
ـ انت الزافر الابدي .

ـ انا واهب الحياة يا يافاوي . ازور الارض كلها ، واترك اثاري الدائمة . ان زال لي اثر من مكان ما كان الموت والدمار وارثي. والان الا تسلني من اين اتيت ؟

ـ من سايغون ؟
ـ نعم ولا .
ـ من فنومبنه ؟
ـ نعم ولا .
ـ من طق ، طاق ، طيق .
ـ نعم ولا .
ـ انت تعذبني . الست ترى الى حالي ؟
ـ لعنتك الشجرة التي سميت بأسمك .
ـ لماذا ؟
ـ لانني مررت بها قبل قليل .

قبل قليل . آه الشجرة . هناك ، في نهاية الافق الممتد في سويداء العتمة . استطالت الالسن . سبحت في الصحراء . اثارت هزة نور ساطع ، سورت بهالة قدسية شجرة ، ما ، شجرة حزينة متوحدة ، عند القهر المعشش في قلوب الملايين المطحونين في كبدك يا يافاوي . هناك عند التقاء السماء الحدباء بالارض الجرداء . شجرة باسقة ، لكنها وحيدة ، وحزينة ، مثلك يايافاوي . شيىء ما ، سر لا يدرك كنهه اليافاوي حرك رجليه على حين غرة . سارت الخطوات من جديد . عيناه انزرعتا في مكان الشجرة البعيدة . لقد كانت الشجرة بعيدة جدا . والالم ركن في ركبتيه وظهره ، والحزن القاتم اخذ يتفتح مثل شقائق اخر الليل . كلما تحامل على الآمه وسار كان يستشعر لذة جديدة ، وخدرا يعوده ، كان الخدر لذيذا هذه المرة . كان الصوت يأتيه عميقا هادىء النبرات ،واضحا، برغم حلكة الظلام واختفاء النجوم والقمر .

ـ ابي ، اسمعت اخر الاخبار ؟
ـ الشجرة .. الشجرة .. طق ـ طق .
ـ الشجرة ؟ حمدا لله يا ابي ؟
ـ لقد لعنتني لانني نسيت كيف اهتدي اليها .
ـ اين هي الشجرة الان يا ابي ؟

ـ في مكان قريب بعيد . تحدق به عيون الموت وتشخص اليه ابصار العالم ، وتهفو اليه اكبادنا . يموت فيه الالاف كل يوم ، ويقتل الشجر غيلة . وحوريات البحر الظاهرات ينلن اغتصابا مع كل موجة .

ـ كيف اذن تسير من غير (كلاشن) ؟
ـ آه . يالآفة النسيان اللعينة !

يمد ابنه يده اليه . يلتقط اليد ويتحسس السلاح . سارا معا . كانت الشجرة تكبر وتنأى في آن واحد تسمق وتبتعد ، لكن اوراقها اخذت تتوضح للعيون المعلقة بها .

ـ ابي ، ماذا عن امي . ألم ننسها ؟
ـ لا . لم ننسها . انها هناك يا ولدي ، سبقتنا منذ الازل.

ثم تدحرج امامهما ، بين طبقات الظلمات المتلاصقة ، رأس عذراء قطع من الوريد الى الوريد . كان الدم ينفر من العروق المقطعة . احسا به نارا حامية حين رشقهما رذاذ منه . لكن العينين كانتا تشفان عن بسمة باهتة ، وسط تقطيبة الجبين العريض ، وتلويحة الشعر المنفوش ، وهو يتلوى محركا نسمةحمات الى انفيهما عبير البرتقال ، وروائح شواء لحوم ادمية ،وصرخة ملدوغ ، وانين شجرة ، واستغاثة ارض .

الكويت

مكتبة انطوان

شارع الامير بشير ـ بيروت

تقدم اكبر مجموعة من كتب الهدايا

في مختلف اللغات العربية والافرنسية والانكليزية

موسوعات مصورة ، علوم متنوعة

ثقافة شاملة ـ حضارات الامم

مكتبة انطوان ـ شارع الامير بشير ـ بيروت